الفصل الثامن

سجاح ومالك بن نويرة

بنو تميم ومنازلهم

تقع منازل بنى تميم على مقربة من بنى عامر إلى الجنوب ؛ وهى تحاذى المدينة من الشرق ممتدة نحو الخليج الفارسي ، وتتصل من ناحية الشمال الشرقي بمصب الفرات . وكان لبنى تميم بين قبائل العرب فى الجاهلية وفى عهد الرسول مقام ، لما ظهر فيها من خصال الشجاعة والكرم ، ولما نبغ بين رجالها من الأبطال والشعراء . ولا يزال التاريخ يذكر لفروعها بنى حنظلة ودارم و بنى مالك و بنى يربوع مواقف ترويها كتب الأدب وكتب التراجم كما يرويها كبار المؤرخين .

ولقد أدّى اتصال هذه القبائل بمصبّ الفرات و بالخليج الفارسى إلى تنقل أبنائها بين شبه الجزيرة وأرض العراق ، كما أدّى إلى اتصالهم بفارس . وكان من أثر ذلك أن دان كثيرون منهم بالنصرانية و إن بقي أكثرهم يعبدون الأصنام . فلما انتشر الإسلام بينهم احتفظوا باستقلالهم ، ولم ينزلوا عنه راضية نفوسهم . لذلك كانوا فى مقدمة القبائل التى أبتْ أداء الزكاة حين بعث رسول الله جُباته يقتضونها من الناس . ولقد أسرع بنو العنبر من تميم إلى نبالهم وسيوفهم حين جاء العاشر يطلب إليهم أداءها . فلما ذهب إليهم عُيَينة بن حِصْن بأمر الرسول فقتَل وسبَى منهم ، ذهب وفد من أشرافهم إلى المدينة ودخلوا المسجد ونادوا النبىّ من وراء حجراته أن يردّ إليهم أسراهم ، وذكّروه بمواقفهم معه فى حُنَيْن ، و بما لقومهم من مكانة بين العرب . وخرج إليهم حين الصلاة ، فذكروا له أنهم جاءوا يفاخرونه . فلما رأوا خطيبه أبلغ من خطيبهم ، وشاعره أشعر من

إباؤهم أداء الزكاة فى عهد النبى

شاعرهم ، وصوته أعلى من أصواتهم ، أسلموا ؛ فأعتق النبى أسراهم وردّهم إلى قومهم راضية نفوسهم .

وقُبض رسول الله وله فى تميم عُمّال ، بينهم مالك بن نُوَيْرة على رأس بنى يربوع . وقد اختلف العُمّال حين بلغتهم وفاة النبى ما يصنعون : أيؤدون الزكاة لأبى بكر أم يقسمونها بين الناس . وكان لما بينهم من تنافس أثر بيّن فى اختلافهم ذاك . بل لقد أدّى هذا التنافس إلى أن يقاتل بعضهم بعضاً ، وأن يقيم فريق منهم على الولاء لسلطان المدينة ، وأن يتنكر الآخرون لهذا السلطان .

وكان مالك بن نويرة فيمن ردّوا الزكاة لأصحابها ولم يَرَوْا لأبى بكر حقاً فى اقتضائها . بذلك أصبح عدواً للمسلمين مُعرّضاً لإغارتهم عليه .

مجىء سجاح بنت الحارث إلى تميم

وبينما القوم فى اختلافهم فجأتهم سَجَاح بنتُ الحارث مقبلةً من أرض الجزيرة بالعراق يحيط بها رهطها من تَغْلب ، وتقود معها جنداً من ربيعة والنمر وإياد وشيبان . وكانت سَجَاح تميميّة من بنى يربوع ، وكان أخوالها من تغلب بالعراق . وقد تزوّجت فيهم ، وأقامت بينهم ، وتنصّرت فيمن تنصر منهم . وكانت تنقِم من محمد ومن اتّبعه ما ينقمه منهم اليهود والنصارى ، وما ينقمه منهم الفرس والروم . وكانت امرأةً ذكية ، تدّعى الكهانة ، وتعرف كيف تقود الرجال . فلمّا ترامى إليها أن محمداً أدركته الوفاة ، جاءت فى رهطها وفى القبائل المحيطة بها تريد أن تغزو المدينة وأن تقاتل أبا بكر .

السبب فى مجىء سجاح من شمال العراق

يرى بعض المؤرخين ، وقد يكونون على حق فيما يرون ، أن سَجَاح لم تنحدر من شمال العراق إلى شبه جزيرة العرب يتبعها رهطها والقبائل المحيطة بها لكهانتها ومطامعها الذاتية ، وإنما انحدرت مدفوعة بتحريض الفرس وعُمّالهم فى العراق كى يزيدوا الثورة فى بلاد العرب ضراماً ، ليستعيدوا ما كان لهم فى كثير

من أرجائها من سلطان بدأ يأفل منذ أقام محمد بَذْهان عاملاً له على اليمن ، بعد أن كان بدهان عامل كسرى عليها .

وقد يرجح رواية هؤلاء المؤرخين أن سَجَاح كانت الأنثى الوحيدة التى ادّعت النبوّة ، وأن مثيلاتها اتُّخذن فى كل العصور أداة للتجسس والدعاية ، وأنها لم تلبث فى بلاد العرب إلا ريثما بثّت دعوة الانتقاض ، ثم عادت إلى العراق فسكنت إلى حياتها به .

وليس عجباً أن يتّخذها الفرس أداة لإذكاء الثورة فى بلاد العرب وقد كانوا يرون هذه البلاد أهون من أن يجرّد لها جيش فارسىّ يقاتلها ، وإن كانت مع ذلك جديرة بأن تُرَدَّ إلى عزلتها الأولى قبل قيام محمد بها وانتشار الإسلام فيها . ولا شيء أدنى إلى تحقيق هذه الغاية من القضاء على الدين الجديد الذى جعل أبناءها يعتدّون بأنفسهم ، وإن لم يعتدّ الفرس بهم .

موقف بنى تميم من الاسلام حين جاءت سجاح إليهم

جاءت سجاح إلى شبه الجزيرة متأثرة بهذه العوامل . وكان طبيعياً أن تجعل وجهتها أوّل نزولها بلادَ العرب إلى قومها بنى تميم . وقد فجأتهم وهم مختلفون فيما بينهم : يقول قوم بإيتاء الزكاة واتباع خليفة رسول الله ، وينكر آخرون هذا وذاك ، ويتردد أقوام فهم فى حيرة ؛ ثم ينشأ عن هذا الاختلاف قتال بينهم يشتد حيناً ويهدأ حيناً . ورأت هذه البطون من بنى تميم مَقْدَمَ سَجَاح وعرفوا عزمها على قتال أبى بكر ، فازدادوا بين الإسلام والردّة اضطراباً . وشهد من بقى على إسلامه منهم ما هو أدهى وأمرّ مما هم فيه ؛ فها هى ذى فى جيشها اللَّجِب بالقياس إلى جموعهم المتنافرة تأخذهم على حين غفلة منهم وتعلن فيهم نبوّتها وتدعوهم إلى الإيمان بها . أفيقولون عنها ما قال عُيَينةُ بن حِصْن عن طُلَيحة : « نبية من بنى يربوع خير من نبى من قريش ، وقد مات محمد وسجاح حية » ، وعلى ذلك يتّبعونها ويقومون معها فى وجه أبى بكر والمسلمين ، أم ينصرفون عنها

ويدعونها تسير فى طريقها تواجه أبا بكر ، فإمَّا قضى عليها فانقضت فتنتها ، وإما تم لها الغلب فكان لهم ، وهم قومها الأدنون ، فخار نصرها وفخار نبوّتها ؟

سجاح ومالك ابن نويرة

وقفت سجاح فى جندها على حدود بنى يربوع ، وأرسلت إلى زعيمهم مالك ابن نويرة ودعته إلى الموادعة ، وأنبأته بعزمها على غزو المدينة . وأجابها مالك إلى الموادعة ، لكنه صرفها عن عزمها على لقاء أبى بكر وحرّضها على قتال من اختلف معه من أحياء بنى تميم . واقتنعت سجاح برأيه وقالت : « نعم ! فشأنك بمن رأيت . فإنما أنا امرأة من بنى يربوع ، وإن كان ملك فهو ملككم » .

صفة مالك ابن نويرة

كيف أسرعت سَجَاح إلى الرجوع عن عزمها وموافقة مالك على رأيه ؟ ليس فيما تذكره الروايات التى انتهت إلينا ما يُبين عن السرّ فى هذا الانقلاب . لكن الروايات تذكر أن مالكا كان شريفاً فارساً شاعراً ، وكانت فيه خيلاء كقومه ، وكان ذا لِمّة كبيرة ، وكان حلو الحديث حسن المحاضرة . قص أخوه مُتَمِّم بن نويرة ، وكان أسمى من مالك مكانةً فى الشعر ، لكنه كان أعور قبيح الصورة ، أن حيًّا من العرب أسروه فشدّوا وثاقه وألقوه بفنائهم . وبلغ مالكا خبره ، فأقبل على راحلته حتى انتهى إلى القوم وسلّم عليهم وحادثهم وضاحكهم وأنشدهم ، فوالله إن زال كذلك حتى ملأهم سروراً ؛ وبلغ من ارتياح القوم إليه أن أطلقوا متمما بغير فداء . وأسرت بنو تغلب متمما فى الجاهلية ، فجاء مالك ليفديه ، فلما رآه القوم أعجبهم جماله ، وحدّثهم فأعجبهم حديثه ، فلم يقبلوا منه فداء ، وأطلقوا له الأسير فعاد به إلى قومه .

هل اقتنعت سَجَاح بحديث مالك وجماله ، واقتنع بهما أخوالها بنو تغلب وسائر أنصارها ؟ إنما نذكر ذلك لعله يفسر ما كان بين سجاح ومسيلمة من بعدُ . وسواء أصح ذلك أم لم يصح فقد دعت سجاح أمراء بنى تميم لموادعتها فلم يوادعها منهم مع مالك إلا وكيع . وأغارت سجاح فى جندها وجند مالك ووكيع على السريات

فاقتتلوا ومات من الجانبين خلق كثير وأسر بعضهم من بعض . ثم إنهم تصالحوا وترادّوا الأسرى ، وعاد السلام إلى بنى تميم .

هزيمة سجاح فى النباج

وخرجت سجاح فى جنود الجزيرة وقد راجعها العزم أن تلقى أبا بكر . أمّا مالك ووكيع فقد صالحا قومهما بعد أن رأيا سخطهم على اتّباعهما هذه المتنبئة . وبلغت سجاح قرية النِّبَاج ، فلقيها أوس بن خُزَيمة فهزمها ، ثم ترادّا الأسرى وصالحها على ألا تجتاز دياره إلى المدينة . هنالك اجتمع رؤساء أهل الجزيرة وقالوا لها : ما تأمرينا ، فقد صالح مالك ووكيع قومهما فلا ينصروننا ولا يريدوننا أن نجوز أرضهم ، وقد عاهدنا هؤلاء القوم ؟ قالت : اليمامة . فقالوا : إن شوكة أهل اليمامة شديدة وقد غلظ أمر مُسيلمة . وهنا تجرى الرواية بأنها قالت : « عليكم باليمامة ، ودفّوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ندامة » . ولم يبق لهم بعد هذا السجع الذى زعموه وحياً إلا أن يمتثلوا أمرها !

مسيرها مع قومها إلى اليمامة

فيم كان انقلابها إلى اليمامة وقد خانها الحظ بين قومها بنى تميم ، وخانها فى مسيرتها إلى أبى بكر ؟ أولم يكن حولها من رجالها من يشيرون عليها ؟! أم إنهم تمّ إيمانهم بنبوّتها وبهذا السخف الذى تزعم أنه يوحى إليها فلم يترددوا فى اتّباعها ؟ الحق أن قصة سَجَاح كلها عجب ، وما روى عنها إلى فن القصص أقرب . فقد ذكروا أنها لما بلغت اليمامة فى رجالها هابها مسيلمة وخاف إن هو شُغل بها أن يغلبه جند المسلمين أو تغلبه القبائل التى حوله ، فأهدى لها ، ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يجىء إليها . ونزلت فى جندها على الماء وأذنت له ، فجاء فى أربعين من بنى حَنيفة ، ثم خلا إليها يحدّثها ويذكر لها أنه كان يرى أن لقريش نصف الأرض فظلموا ، فليكن نصف الأرض لها . وسجع لها سجعاً أعجبها ، فردّت عليه بمثل سجعه . ثم إنهما تناظرا وتحادثا وطال بهما الحديث . وأُعجبت سجاح بمسيلمة وبحلو حديثه وما شرع لقومه وانتهت إلى الإيمان بتفوقه . فلما عرض عليها أن

سجاح ومسيلمة يتناظران وتنتهى مناظرتهما إلى أن يتزوجا

تجمع نبوّته إلى نبوّتها وأن يتزوّجا كان قلبها قد لان له فلم ترفض طلبه . وانتقلت إلى خيامه وأقامت معه ثلاثة أيام رجعت بعدها إلى قومها ، وذكرت لهم أنها وجدته على الحق فتزوّجته .

مسيلمة ينزل لأتباعه عن صلاتين صداقاً لسجاح

وعرف قومها أنه لم يجعل لها صداقاً فقالوا لها : « ارجعى إليه ؛ فقبيح بمثلك أن تتزوّج بغير صداق » . فلما رجعت إليه أغلق حصنه دونها وبعث يسألها ماطلبها ، ثم نزل للناس عن صلاتين : صلاة العشاء وصلاة الفجر ، إكراماً لها . وانتهى الأمر به وبها على أن يحمل لها النصف من غلّات اليمامة . وحمل إليها النصف مما اتفقا عليه فاحتملته وانصرفت به إلى الجزيرة ، وخلّفت وراءها من رجالها من يحمل لها النصف الآخر . لكن هؤلاء الرجال لم يقيموا إلا ريثما أقبلت جيوش المسلمين فهاجمت مسيلمة وقتلته . ولم تزل سجاح فى تغلب حتى نقلهم معاوية عام المجاعة إلى بنى تميم حيث أقامت مسلمةً حسنة الإسلام إلى أن ماتت .

العجب من أمر سجاح وقصتها

هذه قصة سجاح بنت الحارث . وهى — كما قدّمت — عَجَبٌ كل العجب . وهل عجب كمغامرتها بالسير من الجزيرة للقاء أبى بكر وقتاله ، ثم إسراعها إلى العدول عن عزمها حين تحدّث مالك بن نويرة إليها ، ثم انقلابها إلى اليمامة ولقائها مسيلمة وزواجها منه وعودها من عنده إلى أرضها ، وبقائها بعد ذلك مع ذويها كأنها لم تخرج من بينهم ولم تتزوّج من غيرهم !

وأمر مسيلمة معها أعجب العجب . ولئن صح أنه تزوّجها ليكونن ذلك برهاناً على دهائه فى السياسة وعلمه بمداخل القلوب . فهو قد أراد أن يتخلص منها ليفرُغ لقتال من حوله من القبائل ومن أوفدهم أبو بكر لقتاله من المسلمين . ورآها لَيِّنة فاستهوى أنوثتها ، فلما لانت له ودانت أعرض عنها وتخلص منها . والحق أن حديث هذه المرأة مع مالك بن نويرة ثم مع هذا الزميل من مدّعى النبوة يشهد بأنها إن تكن جسنة السجع فى كهانتها فقد كانت لينة العريكة فى أنوثتها . فأمّا مسيلمة

فكان رجلا قزمًا لا جمال فيه إلا حسن حديثه ؛ وكان قليل الافتتان بالمرأة ومحاسنها . ولذلك كان مما شرعه لقومه أن من ولد له ولد لم يجز له أن يقرب امرأة إلا أن يموت ذلك الولد ؛ فإذا مات جاز له أن يبتغي ولداً غيره فيقرب امرأته . أما من كان له ولد ذكر فالنساء عليه حرام ! !

* * *

مالك بن نويرة بعد هزيمة طليحة الأسدى

بَيْنَا يجرى ذلك فى اليمامة بين مُسيلمة وسجاح كان خالد بن الوليد يصعد فى البُزاخة ويصوب ، يستعيد إلى الإسلام من تاب وأناب ، ويعاقب بأشد العقوبة من قتل مسلماً أو عدا عليه ، وينتهى بمقاتلة أم زمل حتى يقتلها ويشتّت جمعها بعد أن شتّت جمع طُلَيحة وحمله على الفرار . وتداول الناس أنباء خالد ، فبلغت مالك بن نويرة بالبطاح فردّته إلى الاضطراب والحيرة . لقد منع الزكاة وقام مع سجاح فى وجه المسلمين من بنى تميم ، وأصبح بذلك عدوًّا المسلمين معرَّضاً لإغارتهم عليه . فماذا عساه يصنع بعد أن باءت جنوده وجنود سجاح معها بالفشل والهزيمة ؟ أمَّا صاحبه وكيع فقد رأى قبح ما صنع ، فعاد إلى الإسلام وأخرج الزكاة . وأما مالك فبقى متحيراً : أينكر أمسه ويعود مسلماً مع أبى بكر كما كان مع محمد يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، أم يصر على مثل موقفه مع سجاح والأمر لله من قبل ومن بعد ! !

خالد بن الوليد يزمع السير إلى البطاح وموقف الأنصار من هذا السير

وفرغ خالد من أسد وغطفان ومن معهما بعد أن عاد كل من بقى من هذه القبائل إلى الإسلام وأذعن لسلطان المدينة . ثم إنه أزمع السير إلى البطاح يلقى فيها مالك بن نويرة ومن كان معه فى مثل تردده . وعرف الأنصار هذا العزم منه فترددوا وقالوا : « ما هذا بعهد الخليفة إلينا ؛ إنما عهده إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا » . وأجابهم خالد : « إن يكن عَهِد إليكم هذا فقد عهد إلىّ أن أمضى . وأنا الأمير وإلىّ تنتهي الأخبار . ولو أنه لم يأتنى كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة إن أعلنته بها فاتتنى لم أُعلمه حتى أنتهزها .

وكذلك إذا ابتلينا بأمر لم يعهد لنا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ؛ وهذا مالك بن نويرة بحيالنا . وأنا قاصد له بمن معى من المهاجرين والتابعين لهم بإحسان ، ولست أُكرهكم » . وسار ومن معه ، خلا الأنصار ، يقصد البطاح .

وبرِم الأنصار بالأمر وتشاوروا فيما بينهم فاستقر رأيهم على أن يلحقوا به . ذلك أنهم قالوا : لئن أصاب خالد اليوم خيراً إنه لخير حُرمتموه ، ولئن أصابته ورجاله مصيبة ليجتنبنكم الناس . وجرّدوا إلى خالد رسولا استمهله حتى لحقوا به وساروا معه ، فلما بلغوا البطاح لم يجدوا بها أحدا ؛ فقد فرّق مالك بن نويرة قومه فى ديارهم ونهاهم عن الاجتماع ، وقال لهم : « يابنى يربوع ، إنا كنا قد عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الأمر وبطّأنا الناس عنهم فلم نُفلح ولم ننجح . وإنى قد نظرت فرأيت الأمر يتأتّى للقوم بغير سياسة . وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فإياكم ومناواةَ قوم قد صُنِع لهم » . ونصح لهم بالرجوع إلى الإسلام والتفرق فى الديار ، ورجع هو إلى منزله .

مالك بن نويرة ينصح لقومه بالرجوع إلى الاسلام

لم يجد خالد بالبطاح أحداً ، فبثّ الجنود وأمرهم أن يأتوه بكل من لم يُجب داعية الإسلام ، فإن امتنع فليقتلوه . وكانت وصية أبى بكر أن يؤذِّن جند المسلمين إذا نزلوا منزلا ، فإن أذّن القوم كفّوا عنهم ، وإن لم يؤذِّنوا قتلوا منهم ونهبوهم . فإن أجابوا بعد ذلك إلى داعية الإسلام سألوهم عن الزكاة ، فإن أقرّوا قبلوا منهم ، وإن أبوا قاتلوهم .

جاء الجند بمالك بن نويرة فى نفر من بنى يربوع إلى خالد . وكان المنطق يقضى بعد الذى رأيت بأنه إن أقرّ مالك وأصحابه بالإسلام ، أن يعاملهم خالد معاملة من تاب وأناب . لكن الذى حدث أن خالداً أمر بمالك بن نويرة فقُتل ، وأن هذا القتل أثار بالمدينة ثائرة ظلّت زمناً قبل أن تهدأ ، وأنه كان ذا أثر فى تصرُّف عمر بن الخطاب مع خالد بن الوليد بعد أن ولى الخلافة . لهذا تفصّل الروايات مقتل مالك بن نويرة فى شىء من الإسهاب وتختلف فيه .

جند خالد يجيئونه بمالك بن نويرة

مقتل مالك بن نويرة والروايات فى سببه

قيل إن رؤساء الجند الذين جاءوا بمالك ومن معه اختلفوا فيما بينهم : أأقرّ مالك ومن معه بالإسلام وأجابوا داعية الأذان ، أم أنكروا وتنكروا . روى الطبرى عن أبى قتادة الأنصارىّ ، وكان من رؤساء هذا الجند ، أنه « كان يحدث أنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل فأخذ القوم السلاح ، فقلنا : إنا المسلمون . قالوا : ونحن المسلمون . فقلنا : ما بال السلاح معكم ؟ ! قالوا لنا : فما بال السلاح معكم ؟ فقلنا : فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح ، فوضعوا السلاح ثم صلّينا وصلوا » .

إلى هنا تتفق الروايات . ومن هنا يبدأ اختلافها . قال أبو قتادة : إن القوم أقرّوا بالزكاة و إيتائها . وقال غيره : بل أنكروها وأصرّوا على منعها . ماذا يصنع خالد إزاء هذا الاختلاف بين شهود العيان ، وكيف يقضى فيه ؟

الرواية بأن مالكا وأصحابه قتلوا لخطأ فى الفهم

تجرى رواية بأنه أمر بحبس مالك وأصحابه حتى ينظر فى أمرهم . وحُبسوا فى ليلة باردة جعلت تزداد بتقدم الليل برداً . وأخذت خالداً الشفقة بالقوم فأمر فنادى : دافئوا أسراكم . وكانت هذه العبارة فى لغة كنانة معناها القتل ، وكان الحرّاس من بنى كنانة ، فما لبثوا حين سمعوها أن ظنوا أن خالداً أراد قتلهم فقتلوهم . وسمع خالد الضجة فخرج ، وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه .

رواية المناظرة بين مالك وخالد

وتجرى رواية ثانية بأن خالداً دعا إليه مالكا يناظره ليعرف أى الشهادتين حق: الشهادة بإسلامه ، أم الشهادة بإصراره على الردّة أو على منع الزكاة . وفيما هما يتناظران راجع مالك خالداً وقال : « ما إخال صاحبكم إلا وقد كان يقول كذا وكذا » . قال خالد : « أو ما تعدّه لك صاحباً ! » ثم قدّمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه .

ويقول أبو الفرج فى الأغانى تفسيراً لهذا الحوار بين خالد ومالك ما نصه : « قال ابن سلاّم : من لا يعذِر خالداً يقول إن مالكا قال لخالد : أو بهذا أمرك

صاحبك — يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم — إنه أراد بهذه الفروسية . ومن يعذِر خالداً يقول إنه أراد انتفاء أمر النبوة ، ويحتج بقول مالك :

وقلتُ خذوا أموالكم غيرَ خائفٍ ولا ناظرٍ فيما يجىء من الغد
فإن قام بالأمر المخوّف قائمٌ منعنا وقلنا : الدينُ دين محمد »

أى إنه منع الزكاة وقال لقومه خذوا أموالكم فالدين دين محمد لا دين أبى بكر .

وقد روى ابن خلكان ما ذكر أنه الحديث الذى دار بين الرجلين ، وأورد ما يأتى : « فقال مالك إنى آتى الصلاة دون الزكاة . فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون أخرى !! فقال مالك : قد كان صاحبك يقول ذلك . قال خالد : أوما تراه لك صاحباً ! والله لقد هممت أن أضرب عنقك . ثم تجادلا بالكلام طويلا ، فقال له خالد : إنى قاتلك . قال : أو بذلك أمرك صاحبك ؟ قال خالد : والله لأقتلنك » . وأمر به فقُتل .

يرجح بعضهم هذه الرواية الثانية على الرواية الأولى . على أن هؤلاء الذين يرجحونها يرونها ناقصة ، ويرون أنها إن لم تكمل ناقضت تصرف ابن الوليد فى أمر قُرّة بن هُبيرة والفُجاءة السُّلَمىّ وأبو شَجْرة وأمثالهم ممن قصصنا حديثهم . فهو قد بعث بهؤلاء إلى أبى بكر ليرى فيهم رأيه . ولم يكن مالك بن نويرة أعظم من أيهم إثماً ولا أكبر جريرة ؛ فما باله يقتله ولا يبعث به إلى الخليفة ومكانُه من بنى تميم لم يكن دون مكان أى أولئك من قومه !

الذين يربطون بين مقتل مالك وتزوج خالد من امرأته

وتتمة القصة فى رأيهم أن خالداً تزوّج أم تميم زوجة مالك فى يوم مقتله ، وقبل أن يجف الترابُ دمه ، مخالفاً بذلك كل تقاليد العرب . وهم يريدون أن يربطوا بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته ، وأن يجعلوا هذا الزواج سبب ذلك القتل . ولعلهم فى ذلك على حق ، ولعلهم مخطئون .

ذكر اليعقوبى فى تاريخه : « فأتاه مالك بن نويرة يناظره واتبعته امرأته ؛

فلما رآها خالد أعجبته فقال : « والله لا نلت ما فى مثابتك حتى أقتلك ، فنظر مالكاً فضرب عنقه وتزوّج امرأته » . وذكر أبو الفرج فى الأغانى : « لما تنبّأت سَجَاح اتّبعها مالك، ثم أظهر أنه مسلم ، فضرب خالد عنقه ، فطعن عليه فى ذلك جماعة من الصحابة ، لأنه تزوج امرأة مالك بعده ، وقد كان يقال إنه يهواها فى الجاهلية ، واتّهم لذلك أنه قتل مسلماً ليتزوّج امرأته بعد » . وروى أبو الفرج كذلك قال : « قال محمد بن سلّام : وسمعنى يوماً يونس وأنا أُرَادّ التميمية فى خالد وأعذِره فقال لى : ياأبا عبد الله ، أمَا سمعت بساقَىْ أم تميم ! فكان يقال إنه لم يُرَ أحسنُ من ساقيها » .

موقف ليلى من مناظرة مالك وخالد

وقد نسجت الروايات لهذا الحادث من بعدُ صوراً أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ . فقد قيل : إن ليلى كانت مع زوجها وهو يناظر خالداً ، فلما سمعته يقول له إنى قاتلك ، ووالله لأقتلنك ، ألقت بنفسها على قدمى الفاتح تلتمس منه العفو وقد انسدل شعرها على كتفيها و بلّل الدمع منها عينين زانهما الحور فزادهما سحراً . ونظر خالد إلى وجهها البارع ، وهى ترنو إليه مستعطفة مسترحمة ، نظرة هوى و إعجاب ، فصاح مالك : إنى مقتول لا محالة ! وأجاب خالد : ما لهذا والله ، و إنما قضى عليك كفرك ، وأمر بضرب عنقه .

لسنا نقف عند ما نسجته فنون الأدب من هذه التفاصيل . لكن الثابت الذى لا ريبة فيه أن ليلى أعجبت خالداً ، وأنه لذلك أمسكها من بعدُ ولم يُسَرِّحها مع ما جرّه زواجها عليه من متاعب .

ثورة أبى قتادة الأنصارى

وحسبُك لتقدُر هذه المتاعب أن تعلم أن أبا قتادة الأنصارىّ غضب لفعلة خالد إذ قتل مالكاً وتزوّج امرأته أشد الغضب ، فتركه منصرفاً إلى المدينة ، مُقسماً ألا يكون أبداً فى لواء عليه خالد . روينا ما قيل من أن الجند الذين سجنوا مالك ابن نويرة وأصحابه هم الذين قتلوهم حين سمعوا خالداً يقول : دافئوا أسراكم ، وأن

خالداً غضب لذلك ثم قال : إذا أراد الله أمراً أصابه . ويضيف أصحاب هذه الرواية أن أبا قتادة ظن ما حدث حيلةً من حيل خالد ، وأنه ذهب إليه يقول : هذا عملك ، وأن خالداً زجره فغضب وذهب إلى المدينة .

حديث أبي قتادة مع أبي بكر

ويذكر آخرون أن أبا قتادة ذهب إلى المدينة بعد أن تزوّج خالد أم تميم ، وأن متمم بن نويرة أخا مالك ذهب معه . فلما بلغا المدينة ذهب أبو قتادة ولا يزال الغضب آخذاً منه مأخذه ، فلقى أبا بكر فقصّ عليه أمر خالد وقتْله مالكاً وزواجه من ليلى ، وأضاف أنه أقسم ألا يكون أبداً فى لواء عليه خالد . لكن أبا بكر كان مُعْجَباً بخالد وانتصاراته ، فلم يعجبه أبو قتادة ، بل أنكر منه أن يقول فى سيف الإسلام ما قال .

عمر بن الخطاب يؤيد أبا قتادة عند الخليفة

أترى الأنصارىّ هاله غضب الخليفة فأسكته ؟ كلا ! فقد كانت ثورته على خالد عنيفة كل العنف . لذلك ذهب إلى عمر بن الخطاب فقص عليه القصة وصوّر له خالداً فى صورة الرجل الذى يغلّب هواه على واجبه ، ويستهين بأمر الله إرضاء لنفسه . وأقرّه عمر على رأيه وشاركه فى الطعن على خالد والنيل منه . وذهب عمر إلى أبى بكر وقد أثارته فَعْلة خالد أيمَّا ثورة ، وطلب إليه أن يعزله ؛ وقال : « إن فى سيف خالد رَهَقاً[1] وحق عليه أن يُقيده » . ولم يكن أبو بكر يقيد من عُمّاله . لذلك قال حين ألح عمر عليه غير مرة : « هَبْه ياعمر تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد » . ولم يكتف عمر بهذا الجواب ولم يكفّ عن المطالبة بتنفيذ رأيه . فلما ضاق أبو بكر ذرعاً بإلحاحه قال : « لا ياعمر ! ما كنت لأشيم[2] سيفاً سلّه الله على الكافرين » .

ثورة ابن الخطاب بفعلة خالد

لكن عمر كان يرى صنيع خالد نُكْراً ، فلم تطب نفسه ولم يسترح ضميره .

---

(١) الرهق : السفه والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم .
(٢) أشيم : أغمد . والشيم يستعمل فى السل والأغماد .

كيف إذن يسكت ، وكيف يذر خالداً فى طمأنينته يشعر كأنه لم يأثم ولم يجنِ ذنباً ! لابد أن يعيد القول على أبى بكر وأن يذكر له فى صراحة أن عدوّ الله عدا على امرئ مسلم فقتله ونزا على امرأته ، فليس من الإنصاف فى شىء ألا يُؤاخذ بصنيعه . ولم يسع أبا بكر إزاء ثورة عمر إلا أن يستقدم خالداً ليسأله ما صنع . وأقبل خالد من الميدان إلى المدينة ، ودخل المسجد فى عُدّة الحرب مرتدياً قباء له عليه صدأ الحديد وقد غرز فى عمامته أسهماً . وقام إليه عمر إذ رآه يخطو فى المسجد فنزع الأسهم من رأسه وحطمها وهو يقول : قتلت امرأً مسلماً ثم نزوت على امرأته ! والله لأرجمنّكَ بالأحجار . وأمسك خالد فلم يعترض ولم يقل شيئاً ، ولا يظن إلا أن رأى أبى بكر مثل رأى عمر فيه . ودخل على أبى بكر وقص عليه قصة مالك ومناصرته سجاح وتردّده بعد ذلك ، وجعل يلتمس المعاذير عن قتله . وعذَره أبو بكر ، وتجاوز عما كان منه فى الحرب ؛ لكنه عنفه على التزوّج من امرأة لم يجفّ دم زوجها . وكانت العرب تكره النساء فى الحرب ، وترى الاتصال بهن أثناءها عاراً أى عار .

أبو بكر يستدعى خالداً إلى المدينة

وخرج خالد من عند الخليفة ناجياً بإمارته على الجند ، متأهباً للعود إليهم وقيادتهم إلى اليمامة . ومر بعمر — وكان ما يزال فى المسجد — فالتفت إليه وقال : هلم إلىّ يا بن أم سَلَمة ! قال هذه العبارة وفى عينيه نظرة الساخر ، وفى صوته نبرة المنتصر ، وكأنه يقول : استبق أحجارك فارجم بها غيرى . وأيقن عمر أن أبا بكر عذره وغفر له وأظهر الرضا عنه ، فأمسك بدوره . وانقضى ذلك اليوم بينهما عند مبادلة هذه العبارات .

إصرار ابن الخطاب بعد خلافته على رأيه فى خالد وعزله إياه

على أن عمر لم يتزحزح عن رأيه فيما صنع خالد . فلما تُوفّى أبو بكر ، وبويع عمر خليفة له ، كان من أول ما صنع أن أرسل إلى الشام ينعَى أبا بكر ، وبعث مع البريد الذى حمل النعى رسالة يعزل بها خالداً عن إمارة الجيش . وقد عاتبه خالد على ذلك حين رجع إلى المدينة ، فكان جواب عمر : « ما عزلتك لريبة فيك ،

ولكن افتتن بك الناس فخشيت أن تفتتن بالناس » . وهذه حجة لها قيمتها . لكن إجماع المؤرخين منعقد على أن عمر بقى متأثراً برأيه فى موقف خالد من مقتل مالك بن نويرة وزواجه امرأته ، وأن هذا الرأى كان له أثره من بعد فى عزل خالد .

متمم بن نويرة ونشاطه بعد مقتل أخيه

لم يكن نشاط متمم بن نويرة بأقلّ من نشاط أبى قتادة منذ قدم معه المدينة . فقد طلب إلى أبى بكر ديّة مالك فوداه ، وتحدّث إليه فى سبيهم فكتب إليه بردّ السبى . وأقام متمم بالمدينة زمناً طال إلى ما بعد غزوة اليمامة ، ثم كان موضع العطف الشديد من عمر لإصرار عمر على رأيه فى خالد . وكان متمم قد قال فى أخيه مراثى كثيرة لا تزال تُعَدّ من عيون الشعر العربى . ذكروا عن السبب فى اتصال المعرفة بين متمم وعمر أن ابن الخطاب كان يصلّى الصبح يوماً ، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل قصير أعور متنكباً قوساً وبيده هراوة ، فسأل من هذا ، وعرف أنه متمم ابن نويرة ؛ فاستنشده قوله فى أخيه ، فأنشد إحدى قصائده حتى بلغ قوله :

وكنّا كندمانَىْ جَذيمة حِقْبةً ... من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا
فلمّا تفرّقنا كأنّى ومالكاً ، ... لطول اجتماع ، لم نَبِتْ ليلةً معا

فقال عمر : « هذا والله التأبين . ولوَدِدت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيداً بمثل ما رثيت به أخاك » . قال متمم : « لو أن أخى مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته » . وكان زيد قُتل باليمامة شهيداً تحت لواء خالد بن الوليد . قال عمر حين سمع قول متمم : « ما عزّانى أحد عن أخى بمثل ما عزّانى به متمم » .

اختلاف أبى بكر وعمر فى أمر خالد كان اختلافاً فى الرأى السياسى

بلغ اختلاف الرأى بين أبى بكر وعمر فى حادث مالك بن نويرة ما رأيت . وكلا الرجلين كان يريد للإسلام والمسلمين الخير لا ريب . أفكان اختلافهما مع ذلك راجعاً إلى خلاف فى تقدير ما صنع خالد ، أم كان اختلافاً على السياسة التى يجب أن تُتّبع فى هذا الموقف الدقيق من حياة المسلمين ، موقف الردّة وقيام الثورة بها فى أنحاء شبه الجزيرة ؟!

رأى عمر وحجته فى الأمر

الرأى عندى فى هذا الخلاف أنه كان اختلافاً فى السياسة التى يجب أن تُتَّبَع فى هذا الموقف . وهو اختلاف يتفق وطبائع الرجلين . أمّا عمر ، وكان مثال العدل الصارم ، فكان يرى أن خالداً عدا على امرئ مسلم ونزا على امرأته قبل انقضاء عِدّتها ، فلا يصح بقاؤه فى قيادة الجيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد أمر المسلمين ، ويسىء إلى مكانتهم بين العرب ، ولا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أثِمَ مع ليلى . ولو صح أنه تأوّل فأخطأ فى أمر مالك ، وهذا ما لا يجيزه عمر ، فحسبُه ما صنع مع زوجته ليقام عليه الحدّ . وليس ينهض عذراً له أنه سيف الله ، وأنه القائد الذى يسير النصر فى رِكابه . فلو أنّ مثل هذا العذر نهض لأبيحت لخالد وأمثاله المحارم ، ولكان ذلك أسوأ مثل يضرب للمسلمين فى احترام كتاب الله . لذلك لم يفتأ عمر يُعيد على أبى بكر ويلح حتى استدعى خالداً وعنّفه على فَعْلته .

رأى أبى بكر وحجته فيه

أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه لمثل هذه الأمور وزن . وما قَتْلُ رجل أو طائفة من الرجال لخطأ فى التأويل أو لغير خطأ ، والخطرُ محيط بالدولة كلها ، والثورة ناشبة فى بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها ، وهذا القائد الذى يُتّهم بأنه أخطأ من أعظم القوى التى يُدْفَع بها البلاء ويُتّقى بها الخطر ! وما التزوّج من امرأة على خلاف تقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها ، إذا وقع ذلك من فاتح غزا فحق له بحكم الغزو أن تكون له سَبَايَا يصبحن ملك يمينه ! ! إن التزمُّت فى تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابغ والعظماء من أمثال خالد ، وبخاصة إذا كان ذلك يُضِرّ بالدولة أو يعرّضها للخطر . ولقد كان المسلمون فى حاجة إلى سيف خالد ، وكانوا فى حاجة إليه يوم استدعاه أبو بكر وعنّفه أكثر من حاجتهم إليه من قبل . فقد كان مسيلمة باليمامة على مقربة من البطاح فى أربعين ألفاً من بنى حنيفة ، وكانت ثورته بالإسلام والمسلمين أعنف ثورة ، وكان قد تغلّب على عِكرمة بن أبى جهل من قوّاد المسلمين ، وكان أكبر الرجاء معلّقاً بسيف خالد فى الانتصار عليه . أفمن أجل مقتل مالك

ابن نويرة ، أم من أجل ليلى الجميلة التى فتنتْ خالداً ، يعزل خالد وتتعرّض جيوش المسلمين لتغلُّب مسيلمة عليها ، ويتعرض دين الله لما يمكن أن يتعرض له ! ! إن خالداً آية الله ، وسيفه سيف الله . فلتكن سياسة أبى بكر حين استدعاه إليه أن يكتفى بتعنيفه ، وأن يأمره فى الوقت نفسه بالسير إلى اليمامة ولقاء مسيلمة .

أبو بكر يأمر خالدا بالسير إلى اليمامة

هـذا فى رأيي هو التصوير الصحيح لما كان بين أبى بكر وعمر من خلاف فى هذا الحادث . ولعل أبا بكر إنما أصدر أمره إلى خالد يومئذ بالسير للقاء مسيلمة بعد أن تغلّب متنبئ بنى حنيفة على عِكْرمة ، لِيُرِىَ أهل المدينة ومن كان على رأى عمر منهم خاصة ، أن خالداً رجل الملمّات ، وأنه قد قذف به حين أصدر إليه هذا الأمر إلى جحيم ، إما ابتلعه وقضى عليه فكان ذلك خير عقاب له على ما صنع بأم تميم وزوجها ، وإمّا صهره النصر فيه وطهره فخرج مظفّراً غانماً قد سكّن من المسلمين روعاً لا تُعَدّ فعلته بالبطاح شيئاً مذكوراً إلى جانبه .

وقد صهرت اليمامة خالداً وطهّرته وإن تزوج فى أعقابها بنتاً بكراً عقد عليها كما فعل مع ليلى ، ولمّا تجفّ دماء المسلمين ولا دماء أتباع مسيلمة . ولقد عنّفه أبو بكر على فعلته هذه بأشد مما عنّفه على فعلته مع ليلى . لكنه لم يزد على التعنيف ولم يزد خالد على سماعه . وما أرى أبا بكر فى تعنيفه إلا أراد أن يسكّن من ثائرة الثائرين أمثال أبى قتادة . وإن أعجَبْ فليس عجبى للكتّاب والمؤرخين الذين حاولوا أن يسيئوا بهذا الحادث إلى تاريخ خالد بأعظم من عجبى لأمثالهم ممن حاولوا أن يبرئوه أو يتلمسوا له الأعذار . فما مالك ، وما ليلى ، وما بنت مُجَّاعَة إلى جانب المئات والألوف من الرءوس التى طاحت بسيف خالد أو بأمره ! وهذه المئات والألوف من الرءوس الطائرة عن أجسادها هى فخر خالد وهى التى جعلته سيف الله . فإن أصاب سيفه رَهَقٌ فى لحظة من اللحظات ، فقد أصاب هذا السيف النصر والفخار فى سنوات وسنوات .

عاد خالد من المدينة إلى البطاح بعد أن أصدر أبو بكر إليه أمره أن يسير لقتال مسيلمة باليمامة ؛ وعاد إليها وقد برئت من الردّة وآثارها ، فأقام بها على رأس جنده ، ينتظر من أبى بكر مدداً كان يجهّزه لمؤازرته . فلما جاءه المدد سار على رأس الجيش كله ، يقصد أبلغ المتنبئين فى شبه الجزيرة مكراً ، وأشدهم خطراً . سار ممتلئاً ثقة بنفسه ، وإيماناً بالله ، وطمأنينة إلى أنه جل شأنه مؤيده وناصره .

وإن ينصركم الله فلا غالب لكم .

obeikandl.com